٢ ـ منطق الطير

القصـــة الصوفية الخالدة

للدكتور عبد الوهاب عزام

والشاعر فى وصف هذه الاودية يذهب مع الشعر المذاهب البعيدة ، فيملؤها هاجيا بالاهوال والدموع . ولست أدرى أكان الهدهد حازما حين وصف الأودية هذا الوصف المروع . وهذا اجمال وصفها :

١ ـ فى وادى الطلب ، يعترض السالك عقاب كثيرة : ويلقى من النصب والتعب مايضنيه ، ولابد له أن يفرغ من كل مايربطه بهذا العالم ، ويطهر قلبه من علائق هذه الارض . فاذا تم الطهر اصاب القلب شعاع من النور الآلهى فيتضاعف طلبه الف مرة ، واذا يذهب قدما لاتثنيه الأخطار والاهوال

٢ ـ واما وادى العشق : فهو النار يمضى فيه العاشق كاللهب مضطرما ثائراً ولا يفكر فى العواقب ، لايعرف الكفر والدين ، ولا الشك واليقين ، الخير والشر سواء عنده ، كلا بل لاخير ولاشر اذا اضطرم العشق . هنالك القلب خفاق يحترق ويذوب ليرجع الى مكانه كالسمكة اخرجت من البحر الى الصحراء . هنالك العشق نار والعقل دخان ، فاما جاء العشق فر العقل مسرعا .

٣ ـ ثم وادى المعرفة : الذى لاأول له ولا آخر . هنالك تتشعب السبل ، وكل يسلك الطريق الذى يستطيعه ، وكيف ترجو أن يسير الفيل والعنكبوت معا فى هذا الطريق الوعر . انما سير كل سالك على قدر كماله ، وقربه بمقدار حاله . هنالك المعرفة متفاوتة ، فهذا يجد المحراب ، وذاك يجد الصنم ، اذا اضاءت شمس المعرفة من ذلك الفلك العالى أبصر كل بمقداره . وكل مايرى فهو وجه الحبيب ؛ وكل ذرة محله . آلاف الاسرار تتألق كالشمس من وراء الحجب هنالك الظمأ الدائم الى الكمال . . الخ

٤ ـ وادى الاستغناء

مى جهد أزبى نيازى صرصرى ميزند برهم يكدم كشورى
هفت دريابك شمر آنجابود هفت أخترىك شرر آنجابود

تعصف من الاستغنا ريح صرصر تدمر فى كل لحظة اقليما . وهنالكم سبعة الابحر غـــدير ، وسبعة الكواكب شرر ، والجنات السبع جيفة ، وسبع النيران قطعة من برد . يقول العطار : «ياعجبا ! إن النملة هناك تربو قوتها على مائة فيل ، وإن غرابا لايشبع مائة قافلة .

لوسقطت آلاف الارواح فى هذا البحر ماكانت الا قطرة واحدة فى بحر لاساحل له . ولو هوت الافلاك والأنجم ما كانت الا كورقة سقطت من شجرة . . الخ

(يريد شاعرنا أن يشرح ما يدركه السالك فى هذه المرحلة من استغناء الله عن العالم وصغر هذه العوالم كلها وضآلتها فى جانب الحقيقة الكبرى . ويبين أن الأشياء هناك لاتقاس بمقاييسنا)

٥ ـ وادى التوحيد

هناك كل عدد يصير واحدا فى واحد فيتم الاتحاد ، ولكن هذا الواحد ليس كالواحد الذى يذكر فى العدد ، هو وراء العدد والحد (كلام يذكرنا بكلام فيثا غورس فى نشأة العالم من الواحد) . هنالكم لاأزل ولا أبد . وان يضع الازل والابد فلا شىء بينهما فكل الاشياء كانت وستكون عدما .

(ومعنى هذا الكلام المبهم ـ فيما أظن ـ أن الله هو الحقيقة التى لايحدها الزمن ، وكل ماعداها مايقاس بالماضى او الحاضر عدم ، فلا شىء قائم الا هذه الحقيقة .)

٦ ـ وادى الحيرة

هناك يلاقى السالك أضدادا ونقائض تلوح له كلما اختلفت على نفسه الاحوال والادراكات . وهو بين هـذا وذاك يفقد نفسه . لايستطيع أن يهب قلبه لهذا الجلال ولا أن يمنعه ، ولايقدر على أن يسير وحده أو يتبع غيره . فهو نفور من الخلق ومن نفسه ، لامسلم ولا كافر ، لأن دين الحيرة لايحد ، ولايعرف الحب ولا البغض ، ولا التقوى ولا الفسوق ، لاهو خير ولاشرير ، ولاموقن ولا مرتاب ، ولا هو عزيز ولاذليل . لاهو كل شىء ولا هو شىء ، ولا هو كل ولا جزء من كل .

يقول العطار : « فان يسأل السالك هل أنت موجود أم لا ؟ أأنت فى العالم أم خارجه ؟ أظاهر أنت أم خفى ؟ أفان أم باق ، أم لست فانيا ولا باقيا ، أم أنت فان وباق فى وقت واحد ؟ فلن يكون جوابه : الا « لاأدرى شيئا ولاأدرى انى لاادرى . أنا عاشق ولكن من ؟ لا أدرى »

ويضرب العطار مثلا بذى ملك أحبت خادما واستحيت أن تظهر حبها للخادم . فأوحت الى جواريها فسقينه حتى سكر ، ثم أتين به اليها ، فلما صحا بعض الصحو فتح عينيه فرأى جمالا باهرا فى مكان يسحر الالباب ، وشم رائحة ذكية ، وسمع موسيقى مطربة . وأحب الخادم الفتاة ، فلما غلبه النوم حمله الخدم الى مكانه ، فلما استيقظ ذكر ما رأى ولكن كيف ومتى واين ؟ قال له الناس إنه حلم ، ولكنه لم يستطع أن يقول أكان هذا حلما أم يقظة ، ولا أن يعرف أكان سكران أم صاحيا :

(فهذا المثل يوضح مقصد الشاعر فالسالك فى هذه المرحلة تلوح له أشياء من عالم الغيب ثم تختفى عنه حين يرجع سيرته الأولى من هذه الحياة)

٧ ـ وادى الفقر والفناء

وهو آخر الأودية : هو وادى الدهشة والصمم والبكم والغشية ، هنالك آلاف آلاف الظلال تمحى فى الشمس . اذا ماج البحر الكلى فكيف يبقى النمل على صفحة الماء . وكل من قعد نفسه فى هذا البحر فهو فى فنا . وسلام ابدا .

يضرب الشاعر أمثالا ليبين الكلام عن هذا الوادى كدأبه فى الفصول كلها ، ومما ضرب هنا مثل الفراش الذى اجتمع ليلة واتفق على طلب الشمعة ، فقالوا لابد أن يذهب بعضنا ليراها ويصفها لنا قبل الذهاب ؛ ذهبت فراشة الى قصر فرأت نور الشمعة منبعثا منه فرجعت تصف الشمعة لأخواتها ، قالت فراشة عارفة : ماهذه علم بالشمعة قط . فانبعثت فراشة أخرى قاصدة مكان الشمعة فاقتربت ثم اقتربت حتى لم تطق حرها فانثنت الى صاحباتها تصف ما عرفت من أسرار الشمعة ، فقال الخبير : أيها الأخ ماهذا الا كلام كالذى سمعناه من قبل . ذهبت ثالثة سكرى من الشوق راقصة مرفرفة ، فألقت بنفسها فى نار الشمعة فأخذتها النار من كل جهة فاحمرت كالنار . فلما رجعت رآها فى لون النار وضوئها . فقال هذه عرفت الشمعة . انما يدرك المحبوب بالفناء فيه يا لخبير العارف

كل هذا يقوله الهدهد على منبره والطير مصيخات اليه . فلما سمعت الطير مقاله أخذها الغم ووجمت وعرفت ان لا طاقة لها بهذا ومات بعضها فى مكانه ، ثم بدأن الطيران فلقين فى الطريق مالاقبل بوصفه ، وانتهى قليل منها الى الغاية ، وهلك اكثرها فى الطريق ! فمنها غارق فى البحر ، ومنها ضال فى الفيافى ، ومنها هالك عطشا على قنن الجبال ، وبعضها هلك فى وهج الشمس ، وبعضها سقط إعياء ، وبعضها شغله عجائب الطريق فوقف . وبعضها وجد مايلهو به فركن الى الدعة وآثر الراحة . وبعضها أصابته مصائب أخرى .

لم يبلغ الغاية من تلك الآلاف المؤلفة الاثلاثون طائرا « سى مرغ » بلغت وبها من النصب والاعياء والآلام مابها . فماذا وجدن ؟ وجدن حضرة لا يدركها الوصف ولا ينالها العقل . وأين برق الاستغناء يومض فيحرق مئات العوالم فى لمحة . وأين آلاف الشموس وآلاف الكواكب حائرة كالذرات . فقال بعضهن لبعض : واأسفا على ماتحملنا من مشاق السفر . إن مائة فلك هنا كذرة من التراب . فما وجودنا او عدمنا نحن فى هذه الحضرة ؟ نقين فى حسرة ينقص الحزن منهن ، حتى خرج عليهم حاجب العزة . قال : أيتها الحائرات المضنيات من اين جئتن ولماذا ؟ ما اسمكن ، ماذا سمعتن ، ومن اخبركن ان قبضة من العظام مثلكن تستطيع ان تعمل شيئا ، قالت الطير : جئنا هنا ليكون السيمرغ ملكنا . وقد طال علينا الطريق وكنا آلافا فما بقى الا ثلاثون . جئنا من أرض بعيدة راجين ان يؤذن لنا فى هذه الحضرة ، لعل الملك يرضى عملنا فتنالنا نظرة من رحمته

قال الحاجب : أيها الحيارى ما أنتن ما وجودكن وعدمكن عند الملك المطلق الباقى ؟ ان مئات آلاف من العوالم لاتزن شعرة أمام باب هذا الملك ، هلم فارجعن أيتها المكينات .

قالت الطير : إن هوانا على هذا الباب عز ، وسنبقى هنا نحترق كالفراش على النار ، أذن لنا بالدخول ام لم يؤذن ، ولن نيأس من رحمة الملك . فخرج عليهن حاجب الرحمة وفتح الباب لهن وتقدم برفع الحجب مئات من الحجب كل لمحة ، فانبعث النور فى الارجاء وبدا عالم التجلى . فدخلت الطير واجلست على أرائك القرب

ماذا أصاب الطير من بعد ؟ أعطى كل طائر ورقة ليقرأها فقرأ كل ماقدم من عمل حتى غشى عليه حياء وخجلا . ثم محيت الأعمال وأنسيت فلم تذكر الطير شيئا . ثم أضاءت شمس القرب

محرقة كل روح وحينئذ رأين السيمرغ . وما أعجب مارأين . كن اذا نظرن الى السيمرغ يرين « سي مرغ » واذا نظرنا الى أنفسهن « سي مرغ = ثلاثين طائرا » رأينا السيمرغ ، واذا نظرن الى أنفسهن والسيمرغ معا رأين سيمرغا واحدا . فبلغت بهن الحيرة مبلغها . فسألن فقيل لهن : إن هذه الحضرة مرآة فمن جاء هنا لا يرى فيها الا نفسه . فقد جئتن ثلاثين طائرا « سي مرغ » فرأيتن فى المرآة سيمرغ ، ولو جاء أربعون أوخمسون لانكشف الستر كيف تدركنا الابصار . كيف تنال الثريا عين . النملة . ليس الأمر كما علمتن ورأيتن ، ولا كما قالتن وسمعتن . ولكنكن خرجتن من أنفسكن فهاهنا مكانكن . فامحين فيه وضاع الظل فى الشمس

(بلغت الطير مقام الفناء وهو عند الصوفية أن يتجرد الانسان من نفسه ، ويخضع صفاته للصفات الالهية ويرجع كما يقولون قطرة فى البحر تموج بموجه . ويقول أبو سعيد فى تعريف الفناء : إنه فناء الشعور بالبشرية — ولأجل توضيح لغة العطار الشعرية أنقل الجملة الآتية من كشف المحجوب :

« الفناء درجة من الكمال ينالها الأولياء الذين تحرروا من آلام المجاهدة ، وخرجوا من سجن المقامات والاحوال ، وانتهى طلبهم الى الكشف ، فرأوا كل ما يرى وسمعوا كل مايسمع ، وعرفوا كل أسرار القلب ، ولكنهم أدركوا نقص كشفهم هذا فأعرضوا عن كل شيء ، وفنوا فيما رغبوا اليه وفى هذه الرغبة فقدوا كل رغباتهم »

وراء هذه الحال حال أخرى يسميها العطار وغيره من الصوفية « البقاء فى الفناء » ويقول عنها كتابنا هذه العبارة العجيبة . وهو يعترف أنها حال لا تشرح الا بالتمثيل)

فلما [illegible] مائة آلاف من القرون ، القرون التى لا زمان لها . أرجعت الطيور الفانية الى نفسها فلما رجعت الى نفسها بغير أنفسها رجعت الى البقاء بعد الفناء .

(وتأويل هذا بكلام الصوفية الآخرين : أن الانسان يفنى عن نفسه — عن ارادته ورغباته وشهواته الخاصة فيبقى فى الله ، يريد من أجل الله ، ويرغب فى الله ويفعل كل شيء غير غافل عن الله طرفة عين هذه خلاصة ما فى الكتاب — كما فهمته — والكتاب فى حاجة الى بحث مفصل ، ولعله يتاح من بعد .

ثم يختم العطار « منطق الطير » بقوله :

قد عطرت ياعطار آفاق العالم ، وهجت العشاق فى كل مكان ، تارة تنفث العشق المطلق ، وتارة تغنى أغانى الحب لمن عشق ، فى شعرك كنز العاشقين وزينة لاتفنى للواهين . قد ختم عليك « منطق الطير » كما يحيط بالشمس ضوؤها

عبد الوهاب عزام